صور من الحياة :

كبريـــــاء . . . !

للأستاذ كامل محمود حبيب

وقف الفتى أمام أبيه السجين فى كفن بنظر وإن نفسه لتضطرم بعوامل الأسى على أن فقد أباه أحوج ما يكون إليه ، فهو مازال طالباً فى المدرسة الثانوية لم ينل من العلم إلا صبابة لا تغنى من جهل ولا تطعم من طيش . وإن قلبه ليضطرب بخلجات الفرح ، فهو أصبح — فى رأى نفسه — ثرياً يملك آلاف الجنيهات وعشرات الأفدنة وقصراً مشيداً وسط حديقة وارفة الظلال دانية القطوف ، فغداً ينعم بالمال ويسعد بالراحة ويلذ بالحرية . وثارت فيه نوازع الأسى والراحة فى وقت معاً ، فانهمرت عبرات عينيه على حين كان ينضم قلبه على نشوة جارفة من الفرح ، فطالما عانى الضيق والحاجة وطالما أمسك أبوه عنه المال شحاً منه وكزازة . ثم سكتت خواطره حين بهره بريق الذهب وهو يتألق بين يديه فيجذب روحه ويصرفه عن أن يلقى بالاً إلى من ناح أو ندب .

وخلص الفتى من عسر الدرس إلى يسر الحقل ، ومن ضيق المدرسة إلى سعة الحياة ، ومن ذل الاستذكار إلى خفض العيش . وأحس — على حين فجأة — بأنه انتقل من قيود أبيه الثقال فأصبح رب نفسه يطير ويقع فلا يقع إلا على لقمة أو متعة ، وأخوه الأكبر يرى حين الرجل دفعات العبث توشك أن تعصف بأخيه فتستلبه من صحته وماله فى وقت معاً . وآذاه أن يقع الفتى بين مخالب رفاق السوء يبتزون ماله وشبابه ، فأراده على أن يتزوج من ابنة خاله عسى أن ينزع عنه طيش نفسه أو أن ينزعه عن صحاب السوء

ومضت السنون فإذا الفتى زوج وأب ، غير أنه لم يرتدع عن غيه ولا أقلع عن سفاهة . وأنى له أن يقعل وإن الحنين إلى اللهو الوضيع ليعاوده — بين الفينة والفينة — فيطلق لنفسه العنان فيندفع — فى غير وعى — إلى الخمر والقمار والنساء جميعاً ، ومن حواليه شرذمة من السفلة يزينون له حياة الفسق والفجور ، فيلقى إليهم المال فى غير عقل ولا تفكير .

وطمست لذات العابث على عقل الفتى فما أفاق من نشوته إلا ليرى يده صفراً من الذهب والفضة معاً . لقد التهمت أسباب العبث والطيش كل ما ورثه من مال إلا الأفدنة وقد أهملها بدالفلاح فأصابها التلف والبوار ، وإلا القصر وقد ضاقت جنباته بالفحش والمجون ... القصر الذى يمرح فيه صغاره وهم ملائكة الأرض يشيعون عليها روح الجنة وطهارة السماء . ووقف الأب — ذات مرة — ينظر إلى بنيه وهم يتدافعون تحت ظلال شجرة فى مرح لم ترهقه نوازع العيش ولا دنسته شواغل الحياة ، فأصابه الضيق والأسى لأنه يوشك أن يلقى بهم — بجهالته وجهله — إلى هوة من الشقاء والذل .

ووجد الفتى مس الحاجة فانطلق إلى أخيه الأكبر يستعينه على أمره ربما يجمع غلات أرضه . وضحك الأخ الأكبر فى شماتة حين وجد الفرصة سانحة فانحط على أخيه يقذع له فى القول ويقسو عليه فى اللوم ويسف فى الحديث ، ثم قال « ورفاقك ... رفاق السوء ؟ ألا تنظر أيهم يستطيع أن يسد الثغرة فى الشدة ، أو يرأب الصدع عند اليأس ، بعد إذ استنزفوا كل وفرك فى التافه الوضيع ؟ أما أنا فلا أستطيع لأن لى أولادا هم أحق منك بمالى وجهدى » فانفلت الفتى من إذن أخيه وهو يتعثر فى الضيق ويجر أذيال الخيبة . وغاظه أن يأتى من أخيه الأكبر الإحتقار والمهانة ، وأن يحس فيه القسوة والعنف ، وأن يخرج من داره تمضه لفحات الإخفاق والحرمان ، فانطوى على أشجانه يقلب الرأى ويتلبث الفكرة : لقد أفاق من سكرات اللذة فما وجد صحابه ، وصحا من غفوة النشوة فما وجد ماله . ونازعته نفسه إلى أن يستعين بعض أهله ليصلح من شأنه أو يقيم من عوجه ، ولكن كلمات أبيه كانت ماتبرح ترن فى سمعيه فتدفعه عن أن ينشر ضعفه على عين واحد من الناس خشية أن يناله الأذى أو أن تصيبه المهانة فأمسك على مضض وهم . وغير ساعات يضطرب فى لجة من الهواجس لايهدأ ولا يستقر ولا يهتدى إلى حيلة ثم انفرجت ظلمات الحيرة عن قبس من هدى فعقد العزم على رأى .

إلى حين ، فينشط مأمورو القرى ومعلموها فى الدعوة إلى فلان أو فلان ، ثم تقوم المآدب والخطب هنا ، وتنشب المعارك والشتائم هناك ؛ ثم لا يكون الانتخاب آخر الأمر إلا بإرشاد المأمور ، أو إكراه المالك ، أو إيحاء العمدة ، أو إغراء الجنيه !

فقلت فى نفسى : ذلك هو الواقع . ومتى عرفت الأمة أن لها السلطان ، وأن سلطانها معناه البرلمان ، علمت الناخب كيف ينتخب ، وأرشدت النائب كيف ينوب !

ابن عبد المالك

وعلى حين غفلة من أهله انطلق إلى الإسكندرية .

وألقى الفتى بنفسه وأفدته فى خضم المضاربات المالية وهو يرى المادية أمامه تكاد تبتلعه فيقبل عليها فى غير فزع ولا تردد . لقد سلبه اليأس الأمانى والصبر يوم أن تراءت له فرجات الحياة تنعقد أمام ناظريه ، يوم أن لمس الجفوة والغلظة فى حديث أخيه الأكبر وقد كان يطمع أن يجد فيه العون والساعد ، فعزم على أن يختار لنفسه ، وما فى المضاربات المالية إلا اثراء العريض أو الثروة الفاسية .

وهناك فى الاسكندرية ، ابتسمت الحياة للفتى وتألق نجمه وسعد حظه ، فأصاب من الثراء والغنى فى سنة واحدة ما يعجز غيره من أن يناله فى سنوات ، فطابت نفسه وهدأت جائشته . ثم أخذ الحنين يعاوده إلى القرية ، إلى الأهل ، إلى الرفاق ؛ فطار إلى القرية ليعيش على نمط الصالحين يسكن إلى الراحة ويطمئن إلى الهدوء وينعم بالسعادة فى الأسرة بين الزوجة والولد والأهل ، لا تحدثه نفسه بغزوات البيت وقد قاسى منها ، ولا يدفعه قلبه إلى الطيش وقد ذاق مرارته .

وتلقاه أخوه الأكبر — أول ماجاء إلى القرية — فى بشر وسرور ؛ يعانقه فى شوق ، ويقبله فى حرارة ، ويحدثه فى شغف ، ويستغفره من زلته بقوله « لانؤاخذنى — يا أخى — بما فعلت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ، فما كان يخيل إلى أن كلاً وهى هينة لينة ستفزعك من دارك وأهلك ووطنك ، وما كنت أطمع بحديثى إلا أن أردك عن هاوية توشك أن تتردى فى قرارها بين رفاق لا كرم فيهم ولا شهامة » وأغضى الفتى من حديث أخيه الأكبر فعاشا معاً فى رضى وطمأنينة .

ترى ماذا دهى الرجل الذى طرد أثناء الأمس من داره أحوج ما يكون إليه فهو يقبل عليه فى حب وشغف ؟ هل استحالت حاله وانقلبت خواطره فندم على زلته فجاء يستغفر أثناء الأسر وقد فات الأوان ؟ أم هو قد أكبر فيه الهمة والنشاط حين عاد منصوراً مظفراً ؟ أم هو المال يبهر العقول الضعيفة ويستلب الأحلام الرضيعة فتجله وتحترمه لأنه هو — هو المال ؟

وانطوت السنون فإذا الفتى الطائش رجل فيه الرجولة والإنسانية ، وفيه الكرم والشهامة ، وفيه المروءة والسخاء . وإذا صغاره فتيان ملء البصر والسمع والقلب جميعاً تتوثب فيهم فورة الحياة والقوة وتتألق فيهم لمعات الذكاء والعقل ، وإذا ماله يربو ويزداد فيكفل لهم جميعاً الجاه والسلطان ويحميهم الرفاهية والخفض .

ودأب الرجل على أن يختلس فى كل سنة شهراً يقضيه فى الإسكندرية ، يفر — كزعمه — من مضارب الحياة وشواغلها إلى هدوء الوحدة وراحتها . ولكنه — فى الحق — كان يهرع إلى البورصة لإشباع رغبة نفسه فى المضاربات المالية ، ما يستطيع أن يصرف نفسه عنها بعد أن ذاق حلاوة الكسب ولذة الثراء . وهو يرجع إلى أهله فى القرية — كل مرة — طليق المحيا بادى البشر ، تكسوه ثياب الصحة والعافية ، وترتسم عليه علامات النشاط والقوة ؛ لا يشغله الربح ولا تؤرقه الخسارة .

ماهذا الرجل يفزع من الإسكندرية — فى هذه السنة — بعد أيام قلائل ليرجع إلى القرية مشتت الذهن مقطب الجبين ، ينطوى على نفسه فى صمت وسكون ، لايطمئن إلى رفيق ولا يهدأ إلى صاحب ولا يتحدث إلى صديق ؟ وتلقفته الألسن والأبصار ، وحامت حوله الشائعات : ماذا كان هناك فى الإسكندرية ؟ لعل حادثة عصفت بآثار المرح فى نفسه ، أو لعل نكبة نزلت فأطاحت بالبشر فى قلبه ! وحار الناس فى أمره وهو فى صمت ، ومن حوله رجال لا يجد واحد الجرأة على أن يزيح الستار من خبيئة نفسه .

الآن يرح الخفاء ، فهذا هو الحضر جاء ليوقع الحجز على كل ما يملك الرجل إلا ثيابه لاتشفى غلة ولا تنقع صدى ، حتى القصر الذى يعز به ويوليه كل عنايته واهتمامه . وارتسمت على الشفاه ابتسامة التشفى والتهامة ، ولاكت الألسن كلمات السخرية والاستهزاء ، وقال واحد من الناس « من عسى أن يكون المحظوظ الذى يشترى أملاك الرجل الثرى ؟ » وانبرى الأخ الأكبر يساوم الرجل لينقذه من براثن الدين ويستولى هو على أطيانه وقصره فلم يجد الرجل بداً من أن يلقى السلم فباع كل أملاكه بالثمن البخس .

وأرغمت الفاقة ربيب العز والثراء أن يسكن داراً وضيعة فى ناحية قذرة من القرية ، وأن يعمل طول يومه ليكسب قوته وقوت عياله على حين أغلق الأخ الأكبر من دونه باب داره ، وأبى أن ينزع أبناءه من المدرسة ليجد فيهم من يشد أزره ويعينه على لأواء الحياة وشظف العيش . ولكن الابن الأكبر أبى أن يخضع لغزوة أبيه فراح يناقشه فى حدة ، وأراد أن ينطلق إلى عمه يرجوه أن